الدرس الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين :

وعن أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه مرفوعاً : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها)) حديث حسن رواه الدارقطني وغيره .

****

أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه وهو كما عدَّه غير واحد من أهل العلم من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن أجمعها لأمور الدين أصوله وفروعه ، بل بعض أهل العلم قال: إن هذا الحديث أجمع حديثٍ لأصول الدين وفروعه ، ومن تعلم هذه الأمور التي أرشد النبي عليه الصلاة والسلام إلى تعلمها في هذا الحديث العظيم المبارك فإنه يكون بذلك تعلم الدين كله أصوله وفروعه وما ينبغي للمسلم أن يتعلمه منه ؛ فهو حديثٌ عظيم جامع من جوامع كلم النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا أورده الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأربعين ، ومن شرطه في كتابه الأربعين أن يجمعه فيه ما عُد من الأحاديث من جوامع كله عليه الصلاة والسلام ، فأورد هذا الحديث في الأربعين وحسَّنه قال : «وهو حديث حسن» ، والحديث في سنده شيء من الكلام لكن الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرحه للأربعين ذكر ما يشهد لهذا الحديث مما يتقوى به ويكون صالحا للاحتجاج والاعتماد ، وهو حديث عظيم جامع ينبغي على المسلم أن يتأمله .

وإيراد المصنف رحمه الله تعالى لهذا الحديث في «باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب» من أجل ما في هذا الحديث من التوجيه النبوي لتعلم الفرائض والحدود والمحرمات . قال عليه الصلاة والسلام: **((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها ، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))** ؛ فهذا الحديث من الأحاديث العظيمة المهمة في باب التحريض على طلب العلم؛ تعلُّم الفرائض وتعلم حدود الإسلام وتعلم المحرمات في الإسلام ، لأن من لم يتعلم الفرائض والحدود كيف يأتي بها؟ وكيف يكون ملتزما بالشريعة إذا لم يكن على علم بحدودها؟ وكيف أيضًا يجانب المحرمات ويبتعد عنها وهو لا

يعرفها كما قيل : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي» . فإذًا هذا الحديث فيه التحريض على طلب العلم والحث عليه ، بل فيه التنبيه على أهم ما ينبغي أن يتعلمه المسلم وهي أمور ثلاثة : الفرائض، والحدود، والمحرمات .

ثم أيضا في الحديث بيان لغرض التعلم لو قال قائل: لماذا نتعلم الفرائض ولماذا نتعلم حدود الشريعة؟ ولماذا نتعلم المحرمات؟ يأتي الجواب في الحديث نفسه؛ الفرائض نتعلمها حتى لا نضيِّعها لأن من لا يعرف الفرائض يضيع الفرائض ؛ فنتعلم الفرائض كي لا نضيعها ،كي نكون من المحافظين عليها . ونتعلم حدود الشريعة من واجب ومستحب ومباح حتى لا نتجاوز حد الشريعة في أعمالنا ، ولهذا قال هنا : ((وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها)) أي لا تتجاوزوها ، فإذًا الحدود تُتعلم حدود الشريعة من واجب ومستحب ومباح حتى لا يعتديها الإنسان أي لا يتجاوزها . والمحرمات أيضا تُتعلم ويعرفها المسلم ، ولهذا أفرد العلماء مصنفات خاصة في الكبائر والآثام والتحذير منها ، فالكبائر والذنوب يعرفها المسلم من أجل أن يجتنبها ولهذا قال : ((وحرم أشياء فلا تنتهكوها)) أي لا تقترفوها واحذروا من فعلها والوقوع فيها . فهذا أهم ما ينبغي أن يتعلم .

ثم في الوقت نفسه لما ذكر في هذا الحديث أهم ما ينبغي أن يُتعلم حذَّر من السؤالات التي لا يتحقق بها نفعٌ للإنسان في الناحيتين العلمية والعملية ، فنهى عن ذلك قال : ((وسكت عن أشياء)) أي لم يذكر فيها حلالا أو حراما ((سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها))؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] .في زمن الصحابة نُهوا عن هذه الأسئلة حتى لا يكون السؤال مترتبًا عليه حكمًا فنهوا عن مثل هذه السؤلات ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١] . وبعد زمن الصحابة يبقى أيضًا النهي كما بيَّن أهل العلم عن السؤال الذي فيه تعنت ، والسؤال الذي فيه مكابرة ، والسؤال الذي فيعه خوض من المرء فيما لا يعنيه ، والسؤال الذي فيه نوع اعتراض أو نحو ذلك ، والسؤال الذي يراد به إثارة شبهةٍ ؛ فكل هذه السؤلات يُنهى عنها .

ولهذا فإن في الحديث من الفائدة : التنبيه على فقه السؤال . وكثير من الناس يلقون أسئلتهم دون فقهٍ في السؤال من حيث طرح السؤال ، أهمية الأمر المسؤول عنه، صفة طرح السؤال ؛ فكثير من الناس لا يكون عنده فقه في هذا الباب ، بل ربما سأل عما لا يعنيه وترك السؤال عما يعنيه ، قد يكون جاهلا ببعض فرائض الإسلام وواجبات الدين ثم لا يسأل عنها ويسأل عن أغلوطات الأمور ويخوض في الأمور المشتبهة ويقحم نفسه فيما لا يعنيه ؛ وهذا من قلة وعدم الفهم بفقه السؤال . بينما الناصح لنفسه الحريص على سعادتها يجعل سؤاله مغنمًا له ولمن يسمع السؤال . وكم من سؤال صدر من إنسان ناصح ومن قلبٍ محب للخير فجعله الله سبحانه وتعالى سبب هداية للسائل ولخلقٍ كثير لا يحصون ؛ نتيجة سؤال طيب سؤالٍ نافع سؤالٍ صادق سؤالٍ جاد يطرحه الناصح ليستفيد وليستفيد غيره من المؤمنين ومن عباد الله . فالحديث فيه تنبيه إلى أهمية فقه السؤال ، ليس كل ما يخطر في بال الإنسان ويدور في خياله يطرحه ، قد يكون الذي يدور في خيال الإنسان وساوس يتعوذ بالله تبارك

وتعالى منها لا يصوغها سؤالا فيشوش على نفسه وعلى الناس ، بل يتعوذ بالله تبارك وتعالى منها وتذهب عنه وساوس الصدور . فالواجب أن يكون عند العبد فقهٌ في السؤال الذي يطرحه ولهذا قال هنا : ((**وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسان فلا تبحثوا عنها**)) أي لا تسألوا عنها .

وإذا تأملت في هذا الحديث تجد أنه قسَّم الأحكام وأمور الشريعة إلى أقسام أربعة وبيَّن الواجب علينا الواجب تجاه كل قسم :

❖ القسم الأول : الفرائض ؛ وبدأ به عليه الصلاة والسلام قال: ((إن الله فرض فرائض)) ، والمراد بالفرائض واجبات الدين وما فُرض على العباد فعله من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من فرائض الإسلام ، قال: ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) ، وانظر جمال هذا البيان «لا تضيعوها» ، وهذه الكلمة «لا تضيعوها» عندما يقال للإنسان عندما يعطى شيئا ثمينا ويقال له أمسكه ولا تضيعه ، عندما يعطى جوهرة ثمينة كنزا ثمينا يوضع في يده ويقال له لا تضيعه ، هذه الكلمة لا تقال إلا في الشيء الثمين الذي هو عرضة للضياع ؛ فيؤكَّد على الإنسان وينبه إلى المحافظة عليه ، ولهذا هذه الفرائض هي عرضة للضياع في فتن الدنيا وصد الشيطان وقرناء السوء وأنواع الصوارف التي تعرض للإنسان في حياته فهي عرضة للضياع ؛ الصلاة عرضة للضياع ، الصيام عرضة للضياع ، الزكاة عرضة للضياع ، فقال : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) لتكن محافظتكم عليها مستمرة مستديمة معتنين بها محافظين عليها قال «فلا تضيعوها» .

وهذا التوجيه النبوي الكريم يجعل المسلم في أوقاته كلها مجاهدا نفسه على حفظ الفرائض وعدم إضاعة الفرائض ، وأيضا يجعل المسلم ينتبه إلى أن فرائض الإسلام هي أعظم شيء في الإسلام وأنها إذا ضُيعت الفرائض فما سواها من أمور الدين أضيع ؛ من ضيع فريضة الصلاة فما سواها من أمور الدين هو لها أضيع ، ماذا يُنتظر ممن ضاعت منه صلاته؟ ماذا يُنتظر ممن يقوم الصباح ولم يصلِّ الفجر؟ بل إن يومه كله يضيع ، إذا ضاعت الصلاة ضاع اليوم كله وذهبت البركة وقام خبيث النفس كسلانا ، إذا ضاعت الفرائض ضاع كل شيء ، وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، في الحديث قال: ((من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأبي ابن خلف)) يحشر مع صناديد الكفر وأئمة الباطل . فالفرائض إذا ضاعت ضاع ما سواها ، وإذا حُفظت كانت بوابةً لحفظ ما سواها ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] وقوله سبحانه ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] الصلاة تعينك على حفظ أمور الدين الأخرى وتعينك على البعد عن الحرام ، وإذا ضاعت الصلاة وضاعت الفرائض فما سواها من أمور الدين سيكون في حق الإنسان أضيع . ولعل هذا هو سر البدء بالفرائض؛ لأنها أساس وبقية الأمور تأتي تبعا لهذا الأساس العظيم .

قال: ((إن الله فراض فرائض فلا تضيعوها)) ؛ ومن حافظ على فرائض الدين حفظها له رب العالمين ولم يضيّع له منها شيء ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] يحفظها له وتكون بركة عليه في حياته الدنيا وأجرًا وثوابا يلقاه يوم القيامة ، قال : ((إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها)) .

❖ ((**وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها**)) المراد بالحدود هنا: حدود الشريعة ولعله سبق معنا حديث يبين لنا ذلك ، عندما ضرب مثلا قال: ((إن الله ضرب مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران وفي السورين أبواب وعلى الأبواب ستور مرخاة)) ثم بين في الحديث قال: ((السوران حدود الله)) فالشريعة لها حدود لا يجوز للإنسان أن يخرج عنها ، واجب ومستحب ومباح لا يخرج في أفعاله عن هذا الحد ، فإذا خرج عن هذه الأمور عن الواجب والمستحب والمباح فهذا خروج عن حد الشريعة ؛ إما إلى مكروهات أو إلى محرمات ، ويفوت على الإنسان باقتراف هذه الأشياء حظه من مكانته في الشريعة ومنزلته فيها بحسب خروجه عن حد الشريعة ، ولهذا قال أهل العلم عن الإيمان: ينقص بالمعاصي ، إذا فعل أمرًا ليس واجبا ولا مستحبا ولا مباحا إما محرما أو مكروها نقص إيمانه بحسب ذلك ، لا يقال ذهب إيمانه إلا إذا فعل أمرًا ينتقل به من الملة ويخرج به من الدين ، أما إذا ارتكب معصية أو ذنبا صغيرا كان أو كبيرا فيما دون الكفر بالله فإن إيمانه ينقص ، ولهذا قال أئمة العلم الإيمان يزيد وينقص ، ولزيادته أسباب ولنقصانه أسباب ، وهنا تحذير من الأسباب التي ينقص بها الإيمان قال ((فلا تعتدوها)) لأنه إذا اعتداها الإنسان نقص وضعف إيمانه .

❖ ثم ذكر الأمر الثالث قال: ((**وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها**)) حرم أشياء أي نهى عباده عنها ومنعهم منها لما فيها من المضرة عليهم في دينهم ودنياهم ، حرمها تبارك وتعالى على عباده ، والله عز وجل لا يأمر إلا بما فيه خير ولا ينهى إلا عما فيه ضر وشر ، فنهى عن أشياء قال: ((فلا تنتهكوها)) أي لا تقترفوا ولا تفعلوا الشيء الذي نهاكم الله عنه لا ترتكبوه احذروا من ذلك ، والانتهاك والتعبير به هنا يدل على أن الإنسان مادام على جادة الشريعة فإن ثمة حواجز يحذر من انتهاكها وتخطيها لأنها تُخرجه عن جادة الشريعة وعن صراط الله المستقيم، وكلما كان الانتهاك لهذه المحرمات كان أبعد به عن صراط الله المستقيم ، قال ((فلا تنتهكوها)) فهذا الأمر الثالث .

❖ الأمر الرابع قال: ((**وسكت عن أشياء**)) أي لم يُذكر فيها حلال ولا حرام ((**سكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**)) ومن الأمثلة والشواهد على ذلك ما جاء في الحديث وسيسوقه المصنف رحمه الله تعالى بعد هذا الحديث وهو حديث أبي هريرة ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) هذا الحديث له قصة وهي أن النبي عليه الصلاة والسلام لما ذكر للناس فريضة الحج

ورغبهم فيه قال رجل: «أفي كل عام؟» يعني هل هو فرض علينا في كل عام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ((لو قلت نعم لوجبت)) ثم حذر عليه الصلاة والسلام من مثل هذه الأسئلة وقال صلى الله عليه وسلم: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)).

وهنا أيها الإخوة ينبغي أن يُنتبه إلى أمر في واقع كثير من الناس يفرطون فيه ؛ تجده لا يتعلم الشريعة لا يتعلم حدود الإسلام ولديه من الأسئلة فيما لا يعنيه شيءٌ كثير وفرائض الإسلام لم يتعلمها!! فهذه الأحاديث أيضا فيها التحذير من هذا الأمر وأن الواجب على الإنسان أن يعرف الفرائض ويجاهد نفسه على فعلها ، وأن يعرف حد الشريعة فلا يتجاوزه ، وأن يعرف المحرمات ليكون بعيدًا عنها ويترك الأسئلة التي فيها تعنت أو تكلف أو تقعر أو تعمق أو خوض فيما لا يعنيه كل ذلك يتركه .

يمكن أن نقول إن هذا الحديث حديث أبي ثعلبة الخشني يضع للمسلم ولطالب العلم منهجية في طلب العلم حتى تنضبط أموره في طلب العلم وتتزن ، يضع له منهجية في طلب العلم وكيف تكون اهتماماته في الطلب؟ وبماذا يبدأ؟ وكيف يتدرج في طلب العلم؟ فالحديث يضع لطالب العلم منهجية ؛ قال ((إن الله فرض فرائض)) هل يناسب في حق المسلم أن ينشغل بتعلم بعض المندوبات والرغائب والمستحبات وهو لا يعرف فرائض الإسلام؟ أو وهو أيضا مفرط في فرائض الإسلام ، فقبل الدخول في هذه الأمور يتعلم الفرائض وأعظم الفرائض التوحيد الذي خُلق الخلق لأجله وأجدوا لتحقيقه ثم الصلاة الصيام والزكاة والحج ((بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام)) ؛ يتعلم الفرائض ثم يتعلم حدود الشريعة حتى لا يخرج عن حدها فيتعرف على الواجبات والمستحبات حتى لا يخرج عن حد الشريعة ، ثم يتعلم المحرمات حتى لا يقترف شيئا منها ولا يرتكب شيئا منها .

ومن فوائد الحديث العظيمة: بيان أن مقصود العلم العمل ، وإلا ما هي قيمة العلم!! مقصود العلم العمل ، ما هي قيمة تعلم الإنسان للفرائض إذا كان حتى بتعلمه لها مضيعا لها!! وما فائدة تعلم الإنسان للمحرمات إذا كان أيضا مع تعلمه لها مقترفا لها !! يعرف المحرمات ويعرف عقوباتها عند الله سبحانه وتعالى ويعرف أن هناك جنة ونار وثواب وعقاب ثم يرتكب المحرمات !! يصبح علمه حجة عليه ، علم الإنسان إما حجة له أو حجة عليه ((القرآن حجة لك أو عليك)) ؛ فهذا الحديث من فوائده العظيمة أن فيه تنبيهًا إلى أن مقصود العلم العمل ، ولهذا يقول علي رضي الله عنه: «يهتف بالعلم العمل» يعني العلم ينادي العمل «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ما الذي يرتحل؟ العلم ، إذا لم يعمل صاحب العلم به ارتحل علمه ذهب وأصبح حجة عليه. ولهذا من فوائد الحديث العظيمة أن فيه تنبيه للمسلم إلى مقصود العلم ، تجلس في مجالس العلم تتفقه لتعمل وإلا مجلسك شاهدا عليك وحجة عليك .

هل معنى ذلك أن المسلم يترك مجالس العلم؟ يقول "أنا نفسي تميل إلى التفريط وإلى التضييع وإذا جلست مجلس علم سأستمر على تفريطي وتضييعي ويكون هذا المجلس حجة علي لا لي" فهل الأليق بي أن أترك مجالس العلم وأبتعد عنها ؟ الجواب لا ؛ إذا ابتعد الإنسان عن مجالس العلم ومجالس الخير حرم نفسه عن الخير ، مجالس العلم هي أعظم بوابة للإنسان لصلاح نفسه وزكاء قلبه وطمأنينة قلبه وسكونها ((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)) ، يخرج المسلم من مجلس العلم ونفسه مقبلة على الخير مطمئنة منشرح الصدر نافرة من المعاصي محبة للخير ((هم القوم لا يشقى بهم جليسهم)) ، ولهذا مجالس الخير ينبغي أن يحافظ عليها المسلم وفي الوقت نفسه كما أنه يجاهد نفسه على حضور المجالس أيضا يجاهدها على العمل بالخير الذي يتعلمه ويعوِّد نفسه على ذلك .

فالحديث حديث عظيم مبارك ، وإيراد المصنف رحمه الله لهذا الحديث في باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب هذا من فقه المصنف رحمه الله تعالى ومن جمال الاستشهاد والاستدلال .

قال رحمه الله تعالى :

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ،وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**)) هذا الحديث كما اشرت مقدمًا له قصة وهي: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((إن الله فرض عليكم الحج فحجوا)) فقال رجل أفي كل عام يا رسول الله ؟ قال ((لو قلت نعم لوجبت)) ثم قال عليه الصلاة والسلام: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) ؛ «**ما نهيتكم عنه**» أي من المحرمات والممنوعات «**فاجتنبوه**» أي ابتعدوا عنه واحذروا من الوقوع فيه ، «**وما أمرتكم به**» أي من صلاة وصيام وحج وصدقة وغير ذلك «**فأتوا منه ما استطعتم**» أي افعلوا منه الذي تستطيعونه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف الإنسان ما لا يطيق ، لا يكلف نفسا إلا وسعها «فأتوا منه ما استطعتم» ، ((صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب))، قال في الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران:٩٧] ، من لا يطيق الصيام يطعم . فالشاهد أن الأوامر التي أمر الله

تبارك وتعالى بها منوطة بالاستطاعة ، إذا كان الإنسان مستطيعًا لفعلها فعَلَها وإذا كان لا يستطيع فعلها كاملة يفعل منها ما استطاع ((صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) .

لاحظ هنا ملاحظة مهمة: في النواهي قال: ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه)) هل قال هنا «ما استطعتم» ؟ هل ذكر الاستطاعة هنا؟ قال ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه)) ولم يذكر الاستطاعة ، وفي الأوامر قال: ((وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)) لماذا ؟ قال أهل العلم لأن النواهي ترك عدم فعل والترك مستطاع لكل أحد ، مستطاع للقوي والضعيف للصحيح والمريض للكبير والصغير للذكر والأنثى ، الترك مستطاع ليس أمرًا يفعله الإنسان فيقال يمكن يستطيع ويمكن لا يستطيع هو ترك والترك مستطاع لكل أحد ، أما الأوامر افعل كذا هذه قد تكون مستطاعة وقد لا تكون مستطاعة ولهذا في الأوامر قال : ((ما استطعتم)) . مثال للتوضيح الفرق بين الأمر والنهي؛ عندما يقال "لا تدخل مع هذا الباب"، وعندما يقال "ارفع هذا الحجر" أمر ، عندما يقال "لا تدخل مع هذا الباب" هل يحتاج أن يقال إذا استطعت ؟ لا يحتاج إليها لأنه مستطيع ، يبقى في مكانه يذهب من طريق آخر ، لكن "ارفع هذا الحجر" هذا أمر ممكن يكون قوي الذي أُمر فيرفعه ، ويمكن يكون ضعيف مريض ما يستطيع أن يرفعه ، ولهذا لما يؤمر الإنسان بفعل شيء يقال له إذا استطعت ، "اذهب احملي ذاك إذا استطعت" ، لكن "لا تفعل كذا هذا يضرك هذا يهلكك" لا يحتاج في مثل هذا المقام أن يقال «إن استطعت» ، ولهذا هنا قال : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم)) .

قال: ((**فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم**)) كثرة المسائل والاختلاف على الأنبياء له سبب ، وسببه قلة إقبال النفس على العمل ، النفس ليست راغبة في العمل فتبدأ المسائل ، ربما هذا يلاحَظ بصورة مصغرة عندما تأمر طفلك الصغير أن يحضر لك شيئا ؛ إذا لم يكن عنده رغبة أو نشاط أن يحضره لك ماذا يقول؟ مثلا تقول أحضر لي الشيء الفلاني وهو نفسه ليست راغبة في إحضاره ما يريد أن يحضره تجده يقول لك: الذي أين؟ الذي فوق أو الذي تحت؟ في عدة أشياء أيها الذي تريد منه؟ ويجلس في مكانه يسألك عشرة أسئلة ، وإذا كنت ممن هو سريع الغضب ربما انفجرت من سؤالات صغيرك ، هذه السؤلات التي عنده سببها أن نفسه ليست نشيطة للعمل فتأتي مثل هذه السؤالات عند عدم الرغبة في العمل ، أما الراغب في العمل الذي نفسه مقبلة على العمل مجرد ما يُدل على الخير ويفتح له أبوابه مباشرة يفعل . لاحظوا هذا في أمر الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧] الأمر واضح ولا يحتاج إلى أي سؤال اذهب واشتري أي بقرة خذ أي بقرة واذبحها وتكون أديت الذي أُمرت به ، لكنهم سألوا سؤالات وهذه السؤالات نابعة عن عدم رغبة في العمل والحرص عليه ﴿مَا لَوْنُهَا﴾ ، ﴿مَا هِيَ﴾ ، ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أسئلة متعددة ؛ هذه الأسئلة دائما تأتي في قلة رغبة في العمل من كل أحد من الصغير من الكبير ، عندما

تقل الرغبة في العمل تبدأ بعض الأسئلة ، وربما نفس هذا الذي لا يرغب في العمل تقول له ربما بعض الأسئلة تخلِّصك من الموقف ، بعض الأسئلة تجعلك تُعفى مثلا من هذا الأمر فتتكرر وتتوارد الأسئلة التي تنشأ عن قلة العمل ، لكن الذي له رغبة في العمل أمامه فرائض مطلوب أن لا تضيع ، أمامه محرمات مطلوب أن تجتنب، أمامه حدود واضحة للشريعة مطلوب أن تجتنب ؛ فهل يُنشغل عن معرفة الفرائض ومعرفة الحدود ومعرفة المحرمات بسؤالات في أمور لا تعنيه أو في تعنُّتات . فمثل هذه السؤالات أسئلة التعنت والتكلف لا تأتي إلا عن قلة الرغبة في العمل ؛ وهذا فيه تنبيه يفيد جدًا في هذا الباب الذي ساق المصنف رحمه الله تعالى الحديث لأجله فيه تنبيه لطالب العلم أن تتجه همته العالية في الطلب إلى الأمور الكبار مع الحرص على العمل والجد في ذلك ، يعرف الفرائض والأوامر ويعرف أيضا النواهي والمحرمات ، وهو مقبِل على فعل الأوامر وحريص على ترك النواهي واجتنابها .

بهذه المناسبة أذكر قصة لما فيها من فائدة ألا وهي: قصة طالب كنت درَّسته في المرحلة المتوسطة قبل قرابة عشرين سنة أو في هذه الحدود وكان حافظا للقرآن حفظا جيدا ، فيوم من الأيام أتاني بمذكرة في حدود ثلاثمائة صفحة أو أكثر ومكتوب عليها «الأوامر والنواهي في القرآن» وقال لي أريد أن تقرأ هذه وتوجهني ، قلت من الذي جمعها؟ قال أنا ، فقلت لا هذه خليها بعدين التأليف والكتابة هذه مرحلة فيما بعد ، الآن تعتني بطلب العلم ، قال: لا أنا لا أؤلف ، أنا الحمد لله أحفظ القرآن وأقرأ القرآن دائما ولما أقرأ القرآن وجدت في القرآن أوامر كثيرة يأمرنا الله بها ونواهي كثيرة ينهانا الله سبحانه وتعالى عنها ، فأحببت أن أتفقه فيما يأمرني الله به لأفعله وما ينهاني عنه لأتركه، فأخذت كلما جاءني أمر في القرآن أضعه في الكراسة وأرجع إلى تفسير ابن كثير وتفسير ابن سعدي وأنقل معنى الآية ، وأيضا النواهي وجمع لنفسه من أجل أن يفقه ما أمره الله به في القرآن وما نهاه الله عنه في القرآن من أجل أن يفعل الأوامر ويترك النواهي جمع لنفسه مذكرة في ثلاثمائة صفحة وجمع كلام أهل العلم فيها مستشعرا قول ابن مسعود : «إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا يا أيها الناس فأرعها سمعك؛ فإنه إما خير تؤمر به وإما شر تُنه عنه» .

كثير منا يقرأ الأوامر والنواهي التي في القرآن وكأنها لا تعنيه وكأنه لا تعلق له بها ! يقرأ الآية إن كانت أمرا يقصِّر في فعله وإن كانت نهيا يقترفه . اذًا الحديث فيه توجيه مبارك للمسلم ولطالب العلم في طريقة الطلب بأن يهتم في طلبه للعلم بالأمور العظيمة الكبيرة من الفرائض والمحرمات ، وأيضا أن تتجه همته للعمل .

قال رحمه الله تعالى :

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفِظها ووعاها وأداها ، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، وربُّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه . ثلاث لا يَغِلُّ

عليهم قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)) رواه الشافعي والبيهقي في المدخل ورواه أحمد وابن ماجه والدارمي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

****

ثم أورد المصنف رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وهذا الحديث حديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم كما نص على ذلك جماعة من أهل العلم ، وقد رواه عن النبي عليه الصلاة والسلام عشرين نفسًا من الصحابة أو يزيد على ذلك ، ولعل لذلك سبب ألا وهو: أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر هذا الحديث في جمعٍ غفير من الناس جاء في بعض طرق حديث ابن مسعود هذا وجاء أيضا من رواية جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا الحديث في الخيف من منى ، في مسجد الخيف في يوم العيد في حجة الوداع خطب الناس ووعظهم في ذلك اليوم وكان مما قال : ((نضر الله امرء سمع مقالتي)) وأمامه جموع المسلمين في ذلك المكان ، فقال ذلك عليه الصلاة والسلام في مسجد الخيف في منى في يوم العيد وأمامه جموع من الناس ولهذا رواه جمع من الصحابة وهو حديث معدود في الأحاديث المتواترة عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

قال صلى الله عليه وسلم : ((**نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي فحفِظها ووعاها وأداها**)) ؛ «نضر الله» هذا دعاء ، دعاء من النبي صلى الله عليه وسلم بالنضرة ، والنضرة: هي البهاء والتنور والضياء والحسن ، دعا عليه الصلاة والسلام بنضرة الوجه وبهاؤه وجماله وحسنه لمن قاموا بهذه الأمور التي ذكرها عليه الصلاة والسلام في الحديث، قد قال الله في القرآن: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] «ناضرة»: أي حسنة بهية جميلة ، «إلى ربها ناظرة»: أي تنظر بأبصارها إلى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، نسأل الله أن يكرمنا جميعا بذلك .

فالنضرة: هي البهاء والحسن والجمال ، فدعا صلوات الله وسلامه عليه بالنضرة ، ولهذا تستطيع وأنت في هذا القرن وفي هذا الزمان المتأخر من التاريخ أن تفوز بدعاء الني صلى الله عليه وسلم لك بأن ينضر الله وجهك إذا جاهدت نفسك على فعل هذه الأمور التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث تفوز بإذن الله بدعوة مباركة ميمونة من النبي صلى الله عليه وسلم ((نضر الله امرء)) دعاءٌ لمن يقوم بهذه الأمور بأن ينضر الله سبحانه وتعالى وجهه .

قال: ((**نضر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها**)) كم هي الأمور المطلوبة؟ أربعة أمور ، حتى يفوز العبد بهذه الدعوة يفعل أمورًا أربعة وهي مراتب العلم ، ولهذا أوردها المصنف رحمه الله في هذه الترجمة ، فالذي يريد أن يفوز بهذه الدعوة العظيمة المباركة الميمونة من النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على أمور أربعة ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ؛ قال :

١- سمع مقالتي

٢- فحفظها

٣- وعاها

٤- أداها

فهذه مراتب أربعة للعلم ذكرها صلوات الله وسلامه عليه في هذا الحديث ودعا لمن حقق هذه المراتب الأربعة بالنضرة .

❁ الأمر الأول : السماع ؛ ويقولون أول العلم سماعه ، الأول السماع لكن متى يسمع العبد العلم؟ أكثر الناس نفوسهم نافرة من سماع العلم ومنشغلة عن الجلوس له ومنصرفة في أمور لا طائل من ورائها ولا فائدة فيها ، فمتى يسمع الإنسان؟ ولهذا أول العلم سماعه، ولهذا إذا أراد الإنسان أن يجاهد نفسه على العلم والتعلم أن يوطد نفسها ويصبِّرها على سماع العلم ، أن يجلس مطمئنا يسمع العلم ، فهذا أول العلم ، وإذا حرم الإنسان نفسه من سماع العلم الأمور الأخرى ينحرم منها تبعًا لأن أول العلم سماعه . ((سمعها)) هذه الرتبة الأولى .

❁ الرتبة الثانية: ((سمع مقالتي فحفظها)) ؛ الرتبة الثانية حفظ ما يسمع الإنسان ، والحفظ له وسائل عديدة منها أن يكرر الإنسان ما يسمع ، حديثا سمعته تكرره ، من الناس من لا يحتاج أن يكرر ما يحفظه إلا خمس مرات ، ومنهم من يحتاج إلى عشرين مرة ، ومنهم من يحتاج إلى خمسين وهكذا ، فيكرر الإنسان هذا العلم الذي سمعه وهو مغتبطٌ به فرح بسماعه حريص على عوائده وآثاره العظيمة التي عليه وعلى الناس في الدنيا والآخرة فيكرر العلم حتى يكون محفوظا . قال ((سمعها فحفظها)) ، وأيضا من الحفظ العلم أن يُكتب العلم ، العلم صيد والكتابة قيده، فيكتبه حتى يبقى محفوظًا عنده في الكتاب يتسنى له مطالعته ومراجعته بين وقت وآخر ، وكثير من الأحاديث حُفظت حفظها الله سبحانه وتعالى بالكتابة ((سمعها فحفظها)) هذا الأمر الثاني .

❁الأمر الثالث قال : ((ووعاها)) وهو الفهم ؛ فهم ما يسمعه وفهم ما يحفظه ، ولا يكون الحفظ مجرد جمع معلومات لا يدري ما هي ولا يعرف معناها ولا يعرف مدلولها ، بل يعي أي يفهم ويعرف المعنى ، لا يكون الانشغال بالحفظ المجرد بل يحفظ ويفهم ، إذا حفظ آيات من القرآن يجتهد أن يفهمها ، وإذا حفظ أحاديث من سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام أيضا يجتهد في فهمها ومعرفة مدلولها . قال ((ووعاها)) .

❁ ثم تأتي المرتبة الرابعة قال ((وأدَّاها)) في بعض الروايات ((كما سمعها)) يعني يتقن حفظها وضبطها وفهمها ويؤديها أي كما سمعها وافية ، ولهذا كان أئمة الحديث يجتهدون في ضبط ألفاظ الأحاديث وحفظها عناية دقيقة ، وإذا شك في لفظ في الحديث نبه عليه ، كله من حرصهم على الفوز بمثل هذه الدعوة العظيمة المباركة

من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ((نضر الله امرءًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها))؛ هذه مراتب العلم: السماع ، ثم الحفظ ، ثم الفهم ، ثم أداؤه وإبلاغه كما سمعه الإنسان .

قال: ((**فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، وربُّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه**)) وهذا فيه ألا يحتقر الإنسان من المعروف والخير شيئا ويجتهد أن يكون حريصًا على سماع العلم وحريصا على حفظ العلم وفهمه وإبلاغه للناس ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ربما أن يكون الإنسان يحفظ حديثا وليس عنده فقه تام فيه فيذكره إلى من هو أفقه منه فيبين ما فيه من فقه ، بحيث يكون هذا الأول ليس عنده قدرة على الاستنباط والفهم فإذا عرضه على من هو أفقه منه عرف كيف يستنبط منه وكيف يأخذ منه الأحكام ، والأول الذي كان حافظا له لم يكن على علم بذلك ((فرب حامل فقه غير فقيه)) وهذا فيه أن من الناس من يكون يحفظ أحاديث ولكن لا يعرف مدلولها أو لا يعرف دلالاتها الواسعة ، يعرف شيئا يسيرًا من دلالات الحديث ، بعض الأحاديث التي قد يظن بعض الناس أنه ليس فيها دلالات فقهية مثل ((يا أبا عمير ما فعل النغير)) بعض الناس يظن أنه ليس في دلالات أو فوائد فقهية أو أشياء تستنبط منه ، بعض العلماء أوصل الفوائد التي تستنبط من هذا الحديث إلى قرابة مئة فائدة ، فمعرفة الأحكام والاستنباط ليس لكل أحد ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣] هنا يتميز أهل العلم والراسخين فيه.

قال: ((**فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**)) قد يكون شخص أعلم منك وأفقه منك وأرسخ منك في العلم وتذكر له فائدةً جديدة عليه لأول مرة يسمع بها ((رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)) فهذا فيه تحريك الإنسان إلى السماع والحفظ والوعي والإبلاغ والأداء .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((**ثلاث لا يَغِلُّ عليهم قلب امرئ مسلم**)) الغل معروف وهو داء يصيب القلب ومرض يدخل في النفس ، ولهذا قال ((ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم)) الغل مكانه القلب وهو الحقد والضغينة وأن يجد في قلبه شيء على هذه الأمور لا تقبلها نفسه ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام ((ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم)) أي أن قلب المسلم لا يحمل غلا بل نفسه منشرحة لهذه الأمور مقبلة .

قال: ((**إخلاص العمل لله**)) نفس المسلم لا تغل على ذلك بل تطمئن لذلك وتقبِل عليه ، لأن الله عز وجل هو الخالق الرازق المنعم الموجد لهذه المخلوقات والعبادة حق له وحده ، ليس لأي أحد فيها شركة هي حق لله ، فالمسلم يقبل على الإخلاص ونفسه في غاية الانشراح والطمأنينة لأنه يأتي بالعبادة صافية نقية لا يريد بها إلا وجه المستحق سبحانه وتعالى ، فهي حقٌ له وحده جل وعلا ، فنفس المسلم تقبِل على الإخلاص ولا تتردد فيه ولا يجد في قلبه شيئا تجاه الإخلاص . هذا الأمر الأول ((اخلاص العمل لله)) .

((**والنصيحة للمسلمين**)) والنصيحة معناها: إرادة الخير للغير ، إرادة الخير للمسلمين ، لا يحمل في قلبه غشا ولا غلا ولا حقدا ولا حسدا وهذا من تحقيق الإيمان وتتميمه أن يكون العبد بهذا المستوى من النصح، النصح

للمسلمين لا يغش ولا يخدع ولا يحمل غلا ، فقلب المسلم لا يغل على ذلك لماذا؟ لأن الله عز وجل أمرنا بأن نكون ناصحين للمسلمين محبين الخير لهم متعاونين معهم على البر والتقوى والصلاح لا نحمل شرا أو أذى أو كيدا أو مكرًا لمسلم .

قال: ((**ولزوم جماعتهم**)) أن يلزم المسلم جماعة المسلمين فلا ينزع اليد من الطاعة ولا يشق العصا ولا يفرِّق الكلمة بل يكون من جماعة المسلمين ، واحدا منهم واحدا من المسلمين يفرح لفرحهم ويألم لألمهم ويكون واحدا منهم، لا يميز نفسه عليهم ولا يتسلط عليهم بأذى بل يكون واحدا من جماعة المسلمين ((ولزوم جماعة المسلمين)).

ولاحظ هنا أن هذه الأمور الثلاث التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام وقال ((لا يغل عليهن قلب مسلم)) لها ارتباط بالدعوة في أول الحديث قال ((نضر الله امرءً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)) ، متى يتأتى للناس أن يسمعوا العلم ويحفظوا العلم ويعوا العلم ويبلغوا العلم إذا لم تتحقق فيهم هذه الأمور الثلاثة؟ إذا لم يكونوا من أهل الإخلاص ، أو لم يكونوا ناصحين للمسلمين ، أو لم يلزموا جماعة المسلمين ؛ أرأيتم عندما يفرق بعض الناس كلمة المسلمين بالفتن والخروج على ولاة الأمر ونزع اليد من الطاعة ثم تنشب الفتن بين الناس وتراق الدماء ويذهب الأمن ويكثر القلق ، في مثل تلك الأجواء هل يتهيأ للناس الجلوس لسماع العلم ؟ هل يتهيأ لهم الجلوس لحفظ العلم؟ هل يتهيأ لهم إبلاغ العلم؟ ومنطقتهم تعصف بالدماء وتعصف بالفتن وتعصف بالشرور ، فإذا لم يحقق الناس هذه الأمور الثلاثة الإخلاص لله والنصيحة للمسلمين ولزوم الجماعة لا يتحقق لهم الأمر الأول الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأهله بالنضرة الذي هو طلب العلم بالتدرج في مراتبه .

قال: ((**فإن دعوتهم تحيط من وراءهم**)) ؛ دعوة المسلمين شبَّهها النبي عليه الصلاة والسلام بالسياج ، شبَّه دعوة المسلمين أي الإسلام الذي يُدعى إليه ويدعون إليه مثل السياج الذي يحيط بهم ((فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)) أي تجمعهم جميعا محيطة بهم وهم داخلها . وهذا تأكيد على لزوم الجماعة أن لا يخرج الإنسان من جماعة المسلمين، فإذا أراد أن يصلح نفسه أو يصلح أفرادًا من جماعة المسلمين لا يخرج عن الجماعة يبقى مع الجماعة واحدا منهم ويصلح بالتي هي أحسن . انتبهوا الفرق في باب الإصلاح بين المصلحين والمفسدين ؛ المفسد الذي يتزعم الإصلاح يخرج عن جماعة المسلمين ويميز نفسه عن صف المسلمين ويكون خارجا عن الجماعة وبزعمه أنه مصلح ، فيبدأ يفسد في الجماعة قتلًا وإراقةً للدماء وإثارة للشرور والفتن وإذا سئل ماذا تصنع ؟ قال أريد الإصلاح، وهو مفسد. الذي يريد الإصلاح لجماعة المسلمين يبقى واحدا من الجماعة ويصلح الجماعة بالحسنى .

أرأيت –وهذا مثل يوضح لك هذا الأمر جليا– أرأيت عندما تكون أنت على خطأ ويحدثك شخص ينبهك برفق لكنه لما يناصحك تحس أنك منه وأنه منك ورفيقا بك ورحيما ومتلطفا ويدعوك لخير أو ينهاك عن شر تجد نفسك ترتاح إليه وتسمع ، إن لم تسمع منه اليوم غدا ، إن لم تسمع منه غدا بعد غد ، بينما إذا شخص نابذك

وسلَّ عليك سيفه ورماك بالعظائم معتديا عليك نفسك تنفر منه ، ويوجد في الصف وبين الناس من المفاسد وإراقة الدماء والشرور ما لا يحمدون عاقبته .قال ((**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**)) .

وأيضا هذا يتضمن معنى آخر في قوله ((دعوتهم تحيط من ورائهم)) أن من كان مع الجماعة الدعوات التي تصدر من أفرادهم لجماعتهم تشمله ، الدعوات العامة التي تصدر من أفراد المسلمين لجماعة المسلمين عندما يقول "اللهم أعز الإسلام والمسلمين" ، "اللهم اهدنا فيمن هديت" ، "اهدنا الصراط المستقيم" هذه الدعوات العامة التي تصدر من أفراد المسلمين أيضا تشمل المسلمين عمومًا ، وهذا فيه نهي عن الخروج عن جماعة المسلمين وعن صفهم وأن يكونوا يدًا واحدة متعاونين متآزرين متناصحين كلهم يبتغون وجه الله سبحانه وتعالى بالعمل لله مخلصين . قال ((ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مسلم : إخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلين ، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)) .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .